جدلية اللغة والفكر في الخطاب الروائي النسائي:

د: امال محمدي
المغرب

- **تمهيد:**

يتميز الخطاب الروائي النسائي بحضور الوظيفة التعبيرية التي تتمثل في التركيز على دور المرسل، أي البحث عن ذات الأنثى كمرسلة، الذات غير النمطية، الذات الفاعلة المتغيرة، وحضور هذه الخاصية في الخطاب النسائي تهدف إلى تمتين التواصل وفتح الحوار مع الآخر، والتأكيد على الذات. فالوظيفة التي تؤديها اللغة في الكتابة هي الوظيفة التعبيرية، وحسب رأي "رومان جاكسبون" (R. Jakbson) أن الوظيفة التعبيرية أو الانفعالية هي التي تمكن (المرسل) من إعطاء انطباع عن حالته سواء كانت واقعية أم متخيلة، على (المرسل) (الذات المتكلمة) من أجل التعبير عن مشاعرها والحالة الشعورية التي تؤخذ بعين الاعتبار سواء كانت صادقة أم كاذبة، ثم التعبير عن موقف الذات تجاه ما يحدث[1].

- **إشكالية اللغة والفكر:**

المرأة لا تكتب فقط لتعبر عن مشاعرها الخاصة وعن ذاتها لكنها في كتاباتها تعبر عن تصوراتها وأفكارها، عن رؤيتها للعالم وموقعها منه، وكذلك موقع الآخرين، وتطرح رؤية جديدة، وتكشف عن جوانب يغفلها المجتمع، وإذا رجعنا إلى المقاربة التي قام بها دوسوسير عندما تحدث عن التطابق بين الصورة السمعية والصورة الدلالية في الكلمة يمكننا القول أن استعمال اللغة والفكر هما وجهان لورقة واحدة لا يمكن تمزيق الظهر دون تمزيق الوجه[2].ومعنى هذا أن اللغة لا يمكنها أن توجد دون وجود الفكر، "على اعتبار أن اللغة هي الوحدة بين الحامل المادي أي نسق العلاقات والمضامين الدلالية لهذه العلامات (ففي حالة عدم وجود هذا الحامل المادي ينتفي تحول العلامات إلى لغة) فبدون العلامات اللسانية لا وجود لتحقق واقعي للفكر الإنساني المبدئي"[3].

إن وحدة الفكر واللغة وحدة عضوية، فالفكر واستعمال اللغة عنصران لا يمكن فصلهما داخل النسق التطوري للمعرفة، وعدم قدرة استقلالية أحدهما عن الأخر بهذا القدر من الاتساع هو ما يجعل كل عنصر لا يمكنه أن يتمظهر بمعزل عن الآخر، لهذا فإن الفكر لا يمكن النظر إلى أحدهما بمعزل عن الآخر.

وإذا تساءلنا عن العلاقة الثلاثية الفكر/الإبداع / اللغة فإن أدم تشاف قام بتحليل هذه العلاقة في نموذجين الرسم والموسيقى، وخلص إلى نتيجة هامة تتمثل في كون "الفعل الإبداعي يلجأ فيه الفنان بطريقة عامة واعية إلى لغة ما تكون لها علاقة مع اللغة الشفوية، وإلى هذه اللغة الخاصة تضاف لغة التفكير التي يتجه إليها المبدع في إنتاجه الخاص، فعملية التفكير ليست عملية خارجة عن الفعل الإبداعي، إن الفكر الذي ينتج الإبداع سواء كان موسيقى أو رسما لا ينفلت من اللغة، ولا يمكن اقتحامه في استقلالية عنها، فالمبدع لا يستطيع أن ينقلب من التفكير في إبداعه الخاص، وهذا التفكير يتم دائما داخل اللغة.[4]

وهكذا يمكن القول أن الكلام هو دائما عملية فكرية، فلغة الخطاب الروائي لا يمكن أن تنفصل عن فكر له خصوصيات معينة، كان الشكل الذي توظف به اللغة، وكيفما كان نوع صاحب الخطاب، فوظيفة اللغة ترتبط بالفكر لأن اللغة تحيل على فهم دلالات تتوحد مع حواملها المادية في لسان معين"[5]، وقد شكلت هذه الجدلية موضوع رسالتنا الجامعية فبعد استعراض الآراء و الآراء المضادة والتحليلات والمناقشات ودراسة مجموعة من الروايات النسائية وتحليلها على ضوء منهج تكاملي، خلصنا إلى أن في الخطاب الروائي النسائي يصعب الحديث في عن فكر كل شخصية على حدة أو عن فكر جماعي متجانس، إذ يتم رصد "الفكري" من خلال تلفظات

الشخصيات البارزة التي تمثل تركيبة المجتمع، وبهذا يمكن أن نتحدث فكر الساردة، وفكر الشخصيات المحيطة بها، فغالبا ما يعلن الخطاب الروائي منذ بدايته خلخلة منظومة الفكر الذكوري المهيمن، وعزل السلطة والقضاء على النظام الأبوي، والكشف عن تأثيرات مفهوم الثقافة للجنس داخل المجتمع القضيبي، ومحاولة التنديد بالواقع الاجتماعي، والسعي إلى تغيير نظرة الرجل للمرأة.

يذهب أدم تشاف" (Adam Schaff) إلى أن الفكر الذي ينتج الإبداع سواء كان موسيقى أو رسما لا ينفلت من اللغة ولا يمكن اقتحامه في استقلالية عنها"[6].

إن رواية "قلادة قرنفل" للكاتبة "زهور كرام" كشفت عن الرغبة المكتومة للمرأة العربية في تغيير الواقع الكائن، فالساردة شخصية مثقفة تحمل فكرا متميزا تفسر الواقع وتبحث في الوقت نفسه عن صياغة جديدة ورؤية مستقبلية لما ينبغي أن يكون عليه هذا الواقع، وهو فكر مبني على مبدأ تغيير الواقع الكائن والتطلع إلى واقع أفضل، ترفض القمع والاضطهاد الممارس على المرأة باعتبارها أولا وقبل كل شيء امرأة، أو أنثى، من خلال ترسيخ الوعي في صفوف باقي الشخصيات النسائية، وتحرير الرجل وإخراجه من جبة المرأة، إنها تدعو إلى التحرر من القيود الاجتماعية التي تكبل تفكير المرأة وتمنعها من ممارسة حياتها الزوجية بكل حرية.

إن الكاتبة تحاول أن تفتح أبواب هذا العالم النسائي الذي لا يزال خفيا، بسبب عدم وعي المرأة به أو لعدم قدرتها على رد الفعل لوجودها في مجتمع لا يقبل بذلك ولأنها تعده خروجا عن القواعد العامة، وهذا ما سعت الكاتبة إلى تجسيده من خلال الشخصيات النسائية التقليدية الجاهلة، التي لا تستطيع إعلان تمردها مباشرة.

يعتبر تفاعل الرواية النسائية مع موضوعة الجنس من أهم ما يميز الرواية الجديدة، بحيث شكلت جانبا من جوانب تجديدها وتمردها على الرواية التقليدية التي لم تعالج هذه القضية بنفس التصور والمنظور، كما أن الروايات النسائية التي كتبت عن الجنس في العالم العربي قليلة، فهناك روايات الجزائرية "أحلام مستغانمي" وقبلها "كولين خوري" و"غادة السمان" وروايات "ليلى العثمان" والمصرية "نوال السعداوي" وروايات الجزائرية "فضيلة الفاروق"(...)، فعالم الجنس رغم ما كتب عنه ما يزال عالما غامضا يحتاج إلى الكثير من الرحلات الاستكشافية. ويشكل اللجوء إلى اللغة المحرمة أحد خصوصيات الكتاب الروائية عند "زهور كرام"، فقد استطاعت أكبر الكهوف ظلمة، وهو كهف الجنس عند المرأة، ومناقشة مواضيع جديدة مثل العلاقة الجنسية وجراح الجسد الذي من خلالها تكشف عن واقع المرأة المغربية وعوالمها الداخلية، فإشكالية الجنس في الرواية النسائية وصل إلى درجة الرفض وعدم قبولها وتصنيفها ضمن " الكتابة الفاسقة" أو" الأدب السافر". ويعتبر تفاعل الرواية مع موضوعة الجنس من أهم ما يميز الرواية الجديدة، بحيث شكلت جانبا من جوانب تجديدها وتمردها على الرواية التقليدية التي لم تعالج هذه القضية بنفس التصور والمنظور، كما أن الروايات النسائية التي كتبت عن الجنس في العالم العربي قليلة، فهناك روايات الجزائرية "أحلام مستغانمي" وقبلها كولين خوري وغادة السمان وروايات ليلى العثمان والمصرية نوال السعداوي وروايات الجزائرية فضيلة الفاروق... فعالم الجنس رغم ما كتب عنه ما يزال عالما غامضا يحتاج إلى الكثير من الرحلات الاستكشافية.

فالجسد باقتحامه عالم السرد اتخذ طريقا مضادا فأصبح حاكيا ومحكيا خرج من صمته وجموده ليتم تأليفه وفق إيقاعاته وانفعالاته لحظة الرغبة. إن "زهور كرام" تكسر هذا الأسلوب، فتحول المرأة من ذات مرغوب فيها إلى ذات راغبة، فشخصية فاطمة تحافظ على الحدود التي تمنحها لها التقاليد والقوانين الاجتماعية، لهذا فهي تشتهي الرجل داخل مؤسسة الزواج، ترغب في زوجها مشتهية جسده، لعله يخفف تعب جسدها المثقل بهموم اليوم المنتظر.هنا تحول الجسد من مرغوب فيه إلى راغب.

فالفكر ليس باطنيا ولا وجود له خارج العالم وبعيدا عن الكلمات، وما يخدعنا، ويجعلنا نؤمن بفكر يمكن أن يوجد في ذاته قبل التعبير عنه، هو تلك الأفكار التي تكون قد تشكلت وعبر عنها فيما سبق، والتي بإمكاننا أن نتذكرها في صمت، فنتوهم حياة باطنية، غير أن هذا الصمت في حقيقة الأمر يصح بالكلام وهذه الحياة الباطنية لغة "باطنية" وليس الفكر الخالص، إلا وعيا فارغا وأمنية لحظية،

ولا يعرف القصد الدال ذاته إلا إذا تقمص الدلالات الموجودة سابقا والتي تمخضت عن أفعال تعبير سابقة، وهكذا تتشابك المعاني الموجودة وفق قانون مجهول، فيشرع كائن ثقافي جديد في الوجود، فيتكون الفكر والتعبير في آن واحد، عندما يتعبأ محصولنا الثقافي لخدمة هذا القانون المجهول مثلما يستعد جسمنا لفعل جديد لاكتساب العادة.[7]

ويخرج ادم تشاف من خلال تحليله لعلاقة اللغة بالفكر بالاستنتاجات التالية:

الكلام هو دائما عملية فكرية بمعنى التجربة في موضوع مدلول الكلمات باعتبارها شكلا للمفاهيم وللتمثلات (على اعتبار أن الكلام هو تحيينا للغة). اللغة إذن وحدة شفوية وفكرية وعقلية، في حين الفكر الإنساني يوجد دائما في لغة محددة لأن الفكر الصوري لا تحقيقه بدون علامات اللغة (المسموعة وكذلك في تمظهراتها المكتوبة في نسق آخر في حين لا يمكننا أن نتبع الطرح الذي يقول أن الفكر الإنساني يمكن اختزاله فقط في المفاهيم المتعلقة بالعلامات اللسانية: إن الفكر هو كذلك مركب من عنصر تمثيلي ليس مطابقا للغة ولكن مرهونة به بمجموعة من الطرق،[8] إذن من هنا نلاحظ أن العلاقات بين اللغة والفكر معقدة ومهما كانت علاقاتهما ملتحمة لا يمكن فصل اللغة عن الفكر ولا الفكر عن اللغة، بمعنى آخر لا وجود لفكر بدون لغة.

الهوامش:

[1]–R. Jakobson، question de poétique، Ed، seuil، 1973 page 15.

[2]- Ibid، p. 194.

[3]- Adam Schaf ; langage et connaissance, Ed seuil 1969, p. 177.

[4]- Ibid, p. 187-188.

[5]- Ibid، page 177.

[6]- Adam Schaff" Langage et connaissance "page 177.

[7]- M. Merleau porty phénoménologie de la perception 1945 Gallimard, p.p. 213-214.

[8]- Adam Schaff langage et connaissance, Ed, seuil 1969, p ; 177.